وما سواها (112)

التأريـــــخ العربـــــي والسلـــــوك!!

http://www.arabpsynet.com/Samarrai/DocSamarraiWaMaSawahaa112-140316.pdf

د. صـــــادق السامرائـــــي
أمريكـــا – العـــراق
sadiqalsamarrai@gmail.com

هذه بعض أفكار من سلسلة بحثية طويلة تتناول علاقة التأريخ العربي بالسلوك , وآليات تحويله إلى سقَمٍ ووجيع ومصدرٍ للفتك بالحاضر والمستقبل , وإفراغ الإنسان من طاقاته الحضارية الإنسانية , ومنعه من المشاركة بصناعة الحياة الأفضل , ودفعه للخراب والدمار الذاتي والموضوعي , وفقا لمعطيات التحريف والتشويه والتضليل والتغرير , والإفتراء على مسيرة أمةٍ ذات أنوار وقدرات حضارية رائدة ساطعة.

فالعدوان على التأريخ العربي والدفع المبرمج لإنكاره والإستخفاف به , والعمل الدؤوب على ترسيخ أساليب الإنتقائية السلبية في قراءته وتقديمه , نشاط يلقى الدعم والترويج والتسويق الفائق , مما يساهم في تحويل الوجود العربي بأكمله إلى عبث , ومتوالية إنهيارات وتداعيات خسرانية , ذات مهارات إستلابية غير مسبوقة في حياة الأمم والشعوب.

ويبدو أن التحديات الناهضة المتراكمة تستدعي منّا أن نسلط الأضواء النفسية والسلوكية على التأريخ , فلم يقرأ العرب تأريخهم بعيون العلوم النفسية والسلوكية , وإنما إعتادوا القراءات الدارجة المتوارثة , التي تعيد تصنيع أو كتابة ما تناوله السابقون , ولهذا فلا جديد ولا إضافة ذات قيمة حضارية , وهذا من أهم الأسباب التي حوّلت الموروث العربي بأنواعه إلى عوائق ومصدات , بدلا من أن يكون معينا مطلقا للتوثب والرقاء والسطوع الحضاري الأصيل.

فالعدوان على التأريخ العربي والدفع المبرمج لإنكاره والإستخفاف به , والعمل الدؤوب على ترسيخ أساليب الإنتقائية السلبية في قراءته وتقديمه , نشاط يلقى الدعم والترويج والتسويق الفائق

أن التحديات الناهضة المتراكمة تستدعي منّا أن نسلط الأضواء النفسية والسلوكية على التأريخ

فلم يقرأ العرب تأريخهم بعيون العلوم النفسية والسلوكية , وإنما إعتادوا القراءات الدارجة المتوارثة , التي تعيد تصنيع أو كتابة ما تناوله السابقون

عالمنا المتسارع وفر للأجيال الحاضرة ثروة إدراكية معرفية لم تتيسر لأي جيل قبلها

أولا: التأريخ حمّال الأوجه؟!!

عالمنا المتسارع وفر للأجيال الحاضرة ثروة إدراكية معرفية لم تتيسر لأي جيل قبلها , فالمتغيرات المتسارعة أوضحت آليات ومقتربات كتابة التأريخ , فالفترات المعاشة المتقلبة قد بيّنت أن إرادة المحق المتلاحقة هي الفاعل المستتر في كتابة التأريخ , فكل فترة تريد أن تؤكد على دورها المثالي والصائب , وتلقي باللائمة على التي سبقتها , وهكذا دواليك في مجتمعاتنا العربية خصوصا.

وعندما نقرأ التأريخ مجردا من زمانه ومكانه نقع في الإثم الفظيع , ونتحول إلى أبواق أو صدى لفترة من فتراته , لا غير , ويمكننا أن نستحضر الطوارئ من التغيرات والتحولات المعاصرة , وندعمها بمنهج إنتقائي يبدو مقنعا ومعضدا بما يتحقق في الواقع.

فعندما نقرأ ما يجري اليوم يمكننا أن نفسره وفقا لفترة ما من فترات التأريخ المكتوبة بمداد

التطرف والإنحراف والميل لهذا أو لذاك.

ووفقا لذلك تجدنا نقرأ العديد من الكتابات المنحرفة في تصوراتها ومنهجها ورؤيتها وقراءتها للتطورات , وتحاول أن تفسرها وفقا لما قرأته وتوصلت إليه , من غير موضوعية كافية أو منهجية علمية محايدة , وبعزلة مطلقة عن الزمان التأريخي وكذلك المكان , ومعطيات العصر آنذاك.

فالتأريخ لا يُقرأ بعدسات اليوم , وتصوراته , وإنما يُقرأ بمعطياته الزمانية والمكانية , وإلا فأن التأريخ البشري بأسره عبارة عن سلوكيات همجية متوحشة , ولا فرق بين أي مجتمع وآخر في هذا التفاعل الدامي , فالمجتمعات البشرية تتحكم فيها سلوكيات الغاب الشرسة , التي تزيدها توحشا ودمارا العقائد المهيمنة على وعي البشر , وهذه الهيمنة تختلف من زمان لآخر.

وبسبب هذه العقائد بمختلف مسمياتها الدينية والحزبية , فأن البشرية قد إقترفت أفظع الخطايا بحق ذاتها وموضوعها , وأبشع الأحداث والتفاعلات كانت تتحقق وفقا لإرادة العقائد , التي تلطخت مسيراتها أجمعين بدماء الملايين من الأبرياء العزل.

ولهذا فأن المسؤولية الحضارية والتأريخية والإنسانية توجب علينا في هذا العصر أن نكون حذرين وموضوعيين وعلميين في قراءة التأريخ , وعقلانيين لا عاطفيين منفعلين متقافزين نحو إستنتاجات غير صحيحة وتصورات غير سليمة.

والحقيقة الساطعة التي لا يمكن غض الطرف عنها , أن جميع العقائد قد إرتكبت القبائح , والفرق بينها في درجة التوحش نسبي لا أكثر.

فمنذ أول معبد بني في أيام سومر وما قبلها وحتى اليوم , والتوحش البشري يتنامى ويتطور , بعد أن أخذ سبلا طقوسية وإعتقادية تجعل قتل الآخر سلوكا يقرّب إلى رب العقيدة وإلهها!!

ولا توجد عقيدة بشرية واحدة بلا خطيئة لتجيز لنفسها رمي العقائد الأخرى بحجر؟!!

فهل نقرأ التأريخ أم نقرأ ما فينا بعيون التأريخ الملونة؟!!
فاسالوا بلاد الأندلس عن "فرديناند" و "إيزابيلا" ومَن جاء بعدهم , إن كنتم تعترضون؟!!

ثانيا: تشويه التأريخ هو المطلوب!!

منذ ألفين وثلاثة والساحة الثقافية والإعلامية تعج بمشوهي التأريخ , الذين يكتبون بمداد مشاعرهم السلبية ودمائلهم النفسية , وهذا إثم وإجرام بحق الحياة والضمير والإنسانية , لأن ما يكتبونه عبارة عن أضاليل وأكاذيب وتهيؤات , وتصورات عدوانية سافرة مجردة من المنطق والتحليل العلمي الموضوعي المعزز بالأدلة والبيانات والإحصاءات , وإنما هو تعبير عن تسويق لأمراض مزمنة متقيحة في أعماقهم.

عندما نقرأ التأريخ مجردا من زمانه ومكانه نقع في الإثم الفظيع , ونتحول إلى أبواق أو صدى لفترة من فتراته , لا غير

فالتأريخ لا يُقرأ بعدسات اليوم , وتصوراته , وإنما يُقرأ بمعطياته الزمانية والمكانية , وإلا فأن التأريخ البشري بأسره عبارة عن سلوكيات همجية متوحشة , ولا فرق بين أي مجتمع وآخر في هذا التفاعل الدامي

أن المسؤولية الحضارية والتأريخية والإنسانية توجب علينا في هذا العصر أن نكون حذرين وموضوعيين وعلميين في قراءة التأريخ , وعقلانيين لا عاطفيين منفعلين متقافزين نحو إستنتاجات غير صحيحة وتصورات غير سليمة.

ولا توجد عقيدة بشرية واحدة بلا خطيئة لتجيز لنفسها رمي العقائد الأخرى بحجر؟!!

فهل نقرأ التأريخ أم نقرأ ما فينا بعيون التأريخ الملونة؟!!

وبسبب الفهم المنحرف للديمقراطية تحولت الصحف والمواقع ووسائل الإعلام إلى واجهات مدمرة للحقيقة , ومشوشة للوعي والإدراك المنصف الصحيح , فإختلط صالحها بطالحها , وما عادت هناك قدرة على التمييز , وهذا هو المطلوب لتمرير ما هو مطلوب.

ولهذا تجدنا نقرأ كتابات حاقدة على التأريخ وكاذبة تماما , لكنها تتكرر لتصبح شائعة وسائدة حتى يتم تصديقها وخداع الناس بها , وهذه الإفتراءات والإدعاءات ليست ذات صلة بالديمقراطية , وإنما حولتها إلى حصان أعمى تركبه وتدور في ذات المكان , حتى تخور وتتهالك قواها فتبرك وكأنها فازت بصيدٍ سمين.

منذ ألفين وثلاثة والساحة الثقافية والإعلامية تعج بمشوهي التأريخ , الذين يكتبون بمداد مشاعرهم السلبية وحماقاتهم النفسية , وهذا إثم وإجرام بحق الحياة والضمير والإنسانية

وبإسم الديمقراطية المذبوحة بأقلامنا وأفكارنا , فقدت الكلمة دورها وقيمتها ومسؤوليتها ورسالتها , وتحولت إلى وسيلة للتعبير عمّا يجيش في الأعماق النكداء الجاسية المتخشبة الضمير , والمعدومة الحس الوطني والإنساني.

إن الدوران في هذا الفلك التخريبي التدميري العدواني , وبعد أكثر من عقد من إستيراد الديمقراطية المفصلة على قياس المصالح والأهداف الإقليمية والعالمية , ليشير إلى أن المأساة ستتواصل والعدوان على الذات والموضوع والتأريخ سيتعاظم.

وبسبب الفهم المنحرف للديمقراطية تحولت الصحف والمواقع ووسائل الإعلام إلى واجهات مدمرة للحقيقة , ومشوشة للوعي والإدراك المنصف الصحيح , فإختلط صالحها بطالحها

ولابد للأقلام أن تكون صاحبة ضمير وتعاصر لترى الدنيا كما تبدو للبشر المتحضر , لا كما تمليه عليها عيون الآثام والخطايا , وتصفية الحسابات التي تؤدي لمزيد من الويلات والآلام.
ولكي يخرج الناس من هذه الدائرة المفرغة السقيمة , عليهم أن يستحضروا قيمهم ومبادئهم القويمة الصحيحة التي تربت عليها الأجيال , فلا يستلطفوا دور الأداة والآلة الكفيلة بإنجاز ما تم برمجتها للقيام به , دون أي تحسب وتقدير لمآلات الفعل والعمل.

فما يصيبنا من فعل أيدينا , وأنفسنا الأمارة بالسوء الفاعلة فينا , ولا نلومن سوانا , فقد طفح الكيل ووصل سيل العيب الزبى!!

وتبا للذين يتصورون بأنهم سيشوهون التأريخ والحاضر ويبخسون المستقبل , فإرادة الحياة ستلفظهم كالزبد في رمال الهوان والإذلال , ولن يبقى إلا ما ينفع الناس , ولو فعل ما فعل كل مكّار مخاتل مخادعٍ , متستر بألف قناع وقناع من تراث ذاته البائس المشين!!

بإسم الديمقراطية المذبوحة بأقلامنا وأفكارنا , فقدت الكلمة دورها وقيمتها ومسؤوليتها ورسالتها , وتحولت إلى وسيلة للتعبير عمّا يجيش في الأعماق النكداء الجاسية المتخشبة الضمير , والمعدومة الحس الوطني والإنساني.

ثالثا: التأريخ والتأريخ!!

التأريخ حالة إنسانية كامله متوقدة بحواسها وأفكارها , ورؤاها وتصوراتها وتقديراتها ووجهات نظرها , وقد تنسجم أو لا تنسجم مع آليات الفعل ورد الفعل , التي تصنع هيكله على مرّ العصور , والمفردات المساهمة في صناعة أي تأريخ , تتحكم بها طاقات مكانها وزمانها التي تفاعلت معها.

ولا يمكن عزل أي حالة تأريخية عن ظروفها الموضوعية بأكملها!!

والتأريخ علم ومنهج وبحث وإستنتاج وإستقصاء نزيه , وخالص من شوائب الإنحياز والتسويغ والتبرير , والتعزيز لوجهة نظر ما أو فكرة ما, لأنه ثري بكل ما يريده الساعي لإبراز أية وجهة نظر أو رأي , وهذا لا يعني أن ما يذهب إليه هو صائب , وإنما تمكن أن ينتقي من المسيرة التأريخية ما يساند رؤيته.

ولكي يخرج الناس من هذه الدائرة المفرغة السقيمة , عليهم أن يستحضروا قيمهم ومبادئهم القويمة الصحيحة التي تربت عليها الأجيال

وفي هذا إنتقائية وإنحرافية وتضليل وتشويه لجوهر التأريخ , وقيمته المعرفية وتجربته السلوكية. فعندما تتسيد الإنتقائية وعدم النزاهة , يفقد التأريخ دوره الحضاري , وكونه تجربة نستخلص منها الدروس للوصول إلى تجاوز ما نراه غير نافع لمسيرة الأجيال والوطن والأمة والعقيدة , والقيم والتقاليد والأعراف التي صنعت الحالة الأرقى.

وعندما يُقرأ التأريخ بنصف عين , أو بعين واحدة , فهذا يعني تسخيره لتدمير الوجود الوطني والإنساني , وتحويله إلى سلاح خطير ضد الحياة المعاصرة لأهله.

فما يصيبنا من فعل أيدينا , وأنفسنا الأمارة بالسوء القاعلة فينا , ولا نلومن سوانا , فقد طفح الكيل ووصل سيل العيب الزبى!!

ومدرسة الإنتقاء السلبية تتفاعل في أرجاء وجودنا العربي , وتسعى بطاقاتها المدمرة إلى تخريب ما يدل على القوة والقدرة والإنطلاق الصحيح في الحياة.

فترانا نستجمع همتنا لإستحضار السيئات وإنكار الطيبات والأنوار والإضاءات , ونجتهد في تأكيد إرادة السوء والبغضاء , وتحقيق أعلى درجات النكران لماضينا ومسيرتنا الإنسانية الواضحة , ونطرح موضوعات غريبة وندّعي بأنها صحيحة وتمثلنا.

لا يمكن عزل أي حالة تأريخية عن ظروفها الموضوعية بأكملها!!

إذ يمكن لأي شخص أن يأتي بما يعزز ما يريد قوله من السوء , وما يريد تقديمه من الخير , ويسند توجهه اليائس أو المتفائل بأحداث التأريخ , وهذا ينطبق على جميع التأريخ الإنساني وليس العربي وحسب.

فالتأريخ مَعين لكل شيئ , لأنه من إنتاج البشر بتفاعلاتهم المتنوعة , وفيه خير وشر , صدق وكذب , ظلم وعدل , وجميع المتناقضات الأرضية منذ بدء الخليقة وحتى اليوم , وإلا لا يمكن أن يكون تأريخا.

التأريخ علم ومنهج وبحث وإستنتاج وإستقصاء نزيه , وخالص من شوائب الإنحياز والتسويغ والتبرير , والتعزيز لوجهة نظر ما أو فكرة ما, لأنه ثري بكل ما يريده الساعي لإبراز أية وجهة نظر أو رأي

فلماذا لا نتفكر بالحاضر والمستقبل , ونمعن التيهان في التأريخ وننظره بعدسات مشوهة , فنأتي بما هو ضار لمعاني ومفردات وجودنا المعاصر؟

هل لأننا نستلطف العجز ونخشى التفاعل والمواكبة , أم لأنا رسخنا الشعور بالهزيمة في أعماق ذاتنا التي أمعنا في سحقها الأليم؟!!

رابعا: تأريخنا فخرٌ والعيب فينا!!

كنت في جلسة ثقافية متنوعة , وقد إندهشت من العدوانية السافرة على التأريخ العربي من قبل بعض الأخوة المتحدثين , حتى أن أحدهم يريد أن يلغيه ليعيش من جديد بلا تاريخ , ويتمنى أن نصاب

بالخرف حتى لا نتذكر شيئا , وكأنه يتجاهل أن الإنسان الخرف عالة على الحياة وعبئا كبيراعلى المجتمع.

عندما تتسيد الإنتقائية وعدم النزاهة , يفقد التأريخ دوره الحضاري

إن الأمم والشعوب التي لا تعرف تأريخها أو تنكره , تحتاج لرعاية تامة وتأهيل شامل , فالذاكرة الإنسانية نور يضيئ الطريق , وبوصلة ترشد البصيرة إلى الصراط القويم.

فالإنسان بلا ذاكرة , يفقد معالمه ومعانية الإنسانية ويتحول إلى بدن بلا رأس.

عندما يُقرأ التأريخ بنصف عين , أو بعين واحدة , فهذا يعني تسخيره لتدمير الوجود الوطني والإنساني , وتحويله إلى سلاح خطير ضد الحياة المعاصرة لأهله.

فكيف يتجرأ الأخوة على نسف التاريخ العربي , ولماذا نصل إلى هذا الحد من الفهم والتصور السلبي المتعارض مع بديهيات الفكرة والوجود والحياة الصحيحة.

إن العلة ليست في التأريخ العربي والإنساني , وإنما في الإنسان نفسه لأن قراءته للتأريخ وإدراكه للأحداث , وإقترابه منها مبني على أسس سلبية وقواعد مريضة , فهو ينظر إليه بعيون الإنحراف والغضب والكراهية والإنفعالية العالية , ولا يريد أن يضع الأمور في نصابها , بل يقطع رأس الأحداث عن مكانها وزمانها وآلياتها , ويريدها أن تكون كما يحلو لتصوراته ورؤاه المنحرفة.

إن التأريخ قوة وفعل وتأثير وطاقة إبداعية خلاقة وفرت قدرات لتواصل والبقاء والتقدم , لكننا في هذا العصر نشهد تنامي الهجمات العدوانية على التأريخ العربي , وفقا لبرامج منظمة وخطط مدروسة , لتحويل العربي إلى وجود باهت ومقطوع , ومجرد من القوة الحيوية والإنطلاق الصحيح في الحياة.

لماذا لا نتفكر بالحاضر والمستقبل , ونمعن التيهان في التأريخ وننظره بعدسات مشوهة , فنأتي بما هو ضار لمعاني ومفردات وجودنا المعاصر؟

فالذين يقرؤون التأريخ بعيون زائفة ومدارك منفعلة , عليهم أن يراجعوا أنفسهم ويتصالحوا مع التأريخ وأنفسهم , قبل أن يتوهموا ويوهموا أنفسهم وغيرهم بأن علينا أن نتخلص من تأريخنا لكي نكون , فنحن لا نكون إلا بالفهم الموضوعي الصائب للتأريخ وتحليل أحداثه , وفهم المعطيات الإيجابية والقوى المؤثرة فيه.

أما هذه السلبية فأنها نوع من "البزنز" الذي يُراد من ورائه جني أرباح التداعيات وإستلاب حقوق الناس , وتدمير دورهم ووجودهم الإنساني وسفك دمائهم.

إن الأمم والشعوب التي لا تعرف تأريخها أو تنكره , تحتاج لرعاية تامة وتأهيل شامل , فالذاكرة الإنسانية نور يضيئ الطريق , وبوصلة ترشد البصيرة إلى الصراط القويم.

إن الإقتراب السلبي من التأريخ العربي عمل مضاد للوجود العربي , وإمتهان للأبرياء ومتاجرة بدمائهم , لأن هناك العديد من الذين وقعوا ضحايا لتصوراتهم ومنطلقاتهم المندفعة نحو وديان السوء والهلاك.

إن التأريخ العربي حالة إنسانية مشرقة ومؤثرة في مسيرة الحضارة البشرية , ولا يمكن التخلي عنه , وإنما من الواجب الوطني والإنساني أن نتفاعل معه بإيجابية ونبدي وجهه المشرق , بعيدا عن تضخيم ما فيه من الحالات الأخرى والإمعان بالكتابة عنها , وتقديم التأريخ على أنه سوء وحسب ونزيف دماء لا أكثر.

ففي هذا تجني وكذب وخداع وتضليل وهجوم على الوجود العربي , لأن التأريخ العربي منير وساطع ولا يمكن لأقلام الظلام أن تجرّحه وتدميه وترديه.

فاستيقظوا وتنبهوا أيها العرب وكونوا مع تأريخكم المجيد لا عليه.

خامسا:هل نفهم التاريخ...؟!

نعم هل نفهم التاريخ؟!!

أمضيت بضعة أيامٍ في مكتبة للتاريخ والحضارة العربية , وسط دهشتي وذهولي بالمجلدات الضخمة والموسوعات الثقافية التأريخية , التي كتبها أجدادنا على أنوار الشموع والقناديل في ذلك الزمان , الذي لم تتوفر فيه وسائل الكتابة المتطورة التي نمتلكها اليوم.

دُهِشت بالتأريخ المكتوب وبالمعارف الإنسانية العربية المسطورة , والمعبّرة عن صور الحياة وتحدياتها في أزمانه المتعاقبة , إذ وجدتُ كمّا هائلا من الأحداث وما أفرزته من قوانين ومعادلات للتفاعل الإنساني الحضاري عبر التاريخ.

وخلال تلك الأيام التي إنقطعت فيها للنظر والتأمل والقراءة في تلك المكتبة العربية الجامعة لأمهات الكتب , تساءلت عن فهمنا للتأريخ , فتراءت أمامي أحداث وتطورات الزمن المعاصر في عالمنا العربي, وعندما قارنت بين ما تحقق في الماضي وما تأكد في الحاضر , وجدت أن ما جرى في القرن العشرين وما يجري في القرن الحالي منقطع تماما عن التأريخ , بل وينكره بشدة ويمعن بالجهل والتجاهل والتحريف .

فقادة ورموز الأحداث والتطورات التي جرت في القرن العشرين والقرن الحالي , وبلا إستثناء , في غاية الجهل للتأريخ على مر العقود , وأكثرهم قد صاروا ضحية للتحريفات التي تؤكد غايات في نفس ألف يعقوب ويعقوب , أما معرفة التأريخ بقوانينه ومعادلاته الحضارية ودروسه المستخلصة التي يجب أن تكون نبراسا ومشعلا لأي خطوة لاحقة فهذا "مفقودٌ يا ولدي مفقود".

قال لي أحد الأخوة المفكرين الصينين " أن الذي لا يفهم تأريخه لا يمكنه أن يصنع حاضره ويبني مستقبله" ومضى " أن الرئيس ماو كان فقيها في تأريخ الصين ولهذا صنع الصين المعاصرة" , ثم قال " يبدو أن مشكلة العرب تكمن في إنعدام القائد المتفقه بالتأريخ العربي والواعي لدروسه وعبره" ونظرت إليه بحيرة لكنه قال: " إن تأريخكم أغنى من تأريخنا وأعظم..!"

فقلت : " قد قلت واقع حالنا ومبعث ويلاتنا" !!

ومَن يتأمل رموز أي حركة أو حزب أو مَن هم في مركز القرار في بلداننا , يكتشف الجهل المروّع للتأريخ , وبسبب ذلك فأنهم في معظمهم إلا بعض الإستثناءات , لم يحققوا إنجازات معاصرة ذات دور إنساني وحضاري متلائم مع التأريخ , بل ما يتحقق عبارة عن تقاطع مرير مع الماضي وتشويه كبير لصورته.

إن الجهل بالتأريخ يؤدي إلى التقليد الشكلي الفارغ لأحداثه وتطوراته , لأن الجاهل لا يمتلك وعي جوهر الفكرة وعناصر القانون والمعادلة التي صنعت الحدث.

ولهذا رأينا العديد من الرموز التي تكلمت وعبرت عن التأريخ بجهل مروع , وراحت تردد أسماء معارك وأحداث وتخوضها , وهي في غاية عدم المعرفة بجوهر قدراتها وتفاعلاتها الإنسانية الحضارية.

وهذا ما يحصل عدد من دولنا , حيث يتم التعبير الجاهل المنحرف والمغرض عن التأريخ , فالفاعلون في حالة عدم معرفة وفهم وتصور للتأريخ , وإنما يعبّرون عن إنحرافات وأضاليل

إن العلة ليست في التأريخ العربي والإنساني , وإنما في الإنسان نفسه لأن قراءته للتأريخ وإدراكه للأحداث , وإقترابه منها مبني على أسس سلبية وقواعد مريضة

في هذا العصر نشهد تنامي الهجمات العدوانية على التأريخ العربي , وفقا لبرامج منظمة وخطط مدروسة , لتحويل العربي إلى وجود باهت ومقطوع , ومجرد من القوة الحيوية والإنطلاق الصحيح في الحياة.

إن الإقتراب السلبي من التأريخ العربي عمل مضاد للوجود العربي , وإمتهان للأبرياء ومتاجرة بدمائهم

وتصورات وإفتراءات ومُخترعات باطلة , ويريدون القول بأنهم يحملون رايات التأريخ الذي يجهلونه , بينما يمارسون آليات التزييف والتشويه الفاعلة في أروقة وعيهم المملوك والمبرمج وفقا لما يخدم الغايات.

فالمعضلة الفاعلة في حياة العرب أجمعين , هي الجهل المقصود بالتأريخ وكراهيته والإنتقام منه , وحتى التأريخ المعاصر , فالعرب لم يتعلموا الدروس ويستنبطوا القوانين من ثورتهم الكبرى بقيادة علي بن الحسين في بداية القرن العشرين , وراحوا يكررون أخطاءها ويستلطفونها.

ولا توجد عندنا دراسات تنويرية وبحوث علمية ومؤلفات , تتحدث عن الدروس والقوانين والعِبر المستخلصة من أي حدث وتجربة لكي لا تتكرر مآسيها ونتائجها السلبية , كما يحصل في المجتمعات المتقدمة , التي تدرس كل ظاهرة وحدث وتستنتج القواعد والقوانين منه , فلا تتكرر أخطاؤها ونكساتها.

فالموجود عندنا هو إعادة تكرار الأخطاء والسلبيات وتحويلها إلى قوانين فاعلة في تدمير وجودنا وسحق مصيرنا , وفي هذا يكمن جوهر تداعياتنا الدامية.

ولذلك فنحن نكتب مسيرة حاضرنا بمداد الجهل , فنقضي على المستقبل وندفنه في مقابر الويلات. وفينا صوت يتردد على مدى القرون " لا يُلدغ المؤمن من جحرٍ مرتين".

ترى ألا يشير ذلك إلى وجود عاهة في تفكيرنا؟
وإلا لماذا لا نفكر بما ينفعنا ونحن في أوطاننا؟!!

إن التأريخ العربي حالة إنسانية مشرقة ومؤثرة في مسيرة الحضارة البشرية , ولا يمكن التخلي عنه , وإنما من الواجب الوطني والإنساني أن نتفاعل مع التأريخ العربي بإيجابية ونبدي وجهه المشرق , بعيدا عن تضخيم ما فيه من الحالات الأخرى والإمعان بالكتابة عنها , وتقديم التأريخ على أنه سوء وحسب ونزيف دماء لا أكثر.

عندما قارنت بين ما تحقق في الماضي وما تأكد في الحاضر , وجدت أن ما جرى في القرن العشرين وما يجري في القرن الحالي منقطع تماما عن التأريخ , بل وينكره بشدة ويمعن بالجهل والتجاهل والتحريف .

سادسا: التأريخ والكلمات!!

الإنسان يهتم بالتأريخ , لأنه يريد أن يمتلك مهارات الحفاظ على نوعه , وإمداد قوته بالقدرات اللازمة للغَلبة والسيادة والنماء.

وكأن في البشر طاقة لا تقاوم للتزود من التأريخ , وإستحضار أحداثه وتحدياته وكيفيات مواجهتها وتجاوزها.

وفي تأريخ الأمم والشعوب هناك تفاصيل كثيرة ترسم للباحث صورة الحياة , وتوفر له مادة وصفية يمكنه أن يستدل منها على الحالة الفكرية والثقافية والإجتماعية آنذاك.

وفي متاحف الدنيا صور مرسومة تحدثك عن الحياة التي يمارسها الناس في مختلف الفترات.

وعندما نقرأ التأريخ العربي , ونتصفح ما كتبه المؤرخون , وتراجمهم كإبن خِلكان وغيره , وحتى إبن خلدون , لا نجد ما يشير إلى الناس بل لحياة الملوك والسلاطين والحروب والغزوات , والحكم بما يتحقق فيه ويدور في كواليسه.

ويبدو واضحا إنعدام دور الناس , أو الشعب أو الأمة , وكأنهم أرقام يتصرف بها السلطان لتحقيق

أما معرفة التأريخ بقوانينه ومعادلاته الحضارية ودروسه المستخلصة التي يجب أن تكون نبراسا ومشعلا لأي خطوة لاحقة فهذا "مفقودٌ يا ولدي مفقود".

مآربه ونواياه.

ويظهر أن غياب الرسم وعدم الإهتمام بهذا التوثيق المعرفي الثمين , قد أوجد ثقوبا كبيرة في مسيرة كتابة التأريخ.

فعلى سبيل المثال , وددت أن أعرف مَن الذي وضع فكرة بناء الملوية , أو الذي هندسها , وشرع ببنائها , فلم أجد إلا أن المتوكل هو الذي بناها , وهذا غير صحيح , لأنها بنيت في عصره ولا أظنه قد وضع طابوقة واحدة فيها , لكن صاحب فكرتها ومعمارها مجهول.

قال لي أحد الأخوة المفكرين الصينين " أن الذي لا يفهم تأريخه لا يمكنه أن يصنع حاضره ويبني مستقبله" ومضى " أن الرئيس ماو كان فقيها في تأريخ الصين ولهذا صنع الصين المعاصرة"

وهذا ينطبق على الكثير من الحالات في التأريخ , ومنها يمكن القول بأن مقدار الصوابية في ما نقرأه ليس كبيرا , لأن الذين يكتبون التأريخ يكونون تحت رحمة السلطان أو نظام الحكم , وحتى الشعراء , فلا يمكن لأحدهم أن يهجو أو يصف الحالة كما هي عليه , وإنما كما يريدها السلطان أن توصف.

ولا يمكن لصاحب رأي أن يدلي برأيه الحر , لأن ذلك يعرضه للمخاطر والويلات , والتي قد تقضي بقتله.

وفي هذه الحالة المربكة , لا بد من العقل والمقايسة المنطقية المعقولة , للوصول إلى نتيجة ذات قيمة معرفية وحضارية.

إن الجهل بالتأريخ يؤدي إلى التقليد الشكلي الفارغ لأحداثه وتطوراته , لأن الجاهل لا يمتلك وعي جوهر الفكرة وعناصر القانون والمعادلة التي صنعت الحدث.

ويبدو أن التأريخ المكتوب بمداد الكراسي ورجالاتها , قد أسهم في تدمير العقل العربي , وأنضبه من مهارات التفاعل مع الحياة وفقا لمنهاج صائب وراجح , يؤسس لمتواليات الإرتقاء , وليس التداعي والتقهقر في كهوف الضعف والكسل والخسران.

ذلك أن مسيرة الحكم العربي , ومنذ إبتدائها , تحوّلت إلى دوامة من العواصف التي تمحق بعضها بعضا , فاللاحق يمحق ما أقامه السابق , وهكذا دواليك , ولازلنا ندور في ذات الفلك السلبي التدميري , لمعاني الوجود الحضاري الرشيد.

وبسبب هذا التداول الإمحاقي , أو الإجتثاثي للسلطة والحكم , أدمن العرب على المراوحة , وعدم المبارحة , واستلطفوا السكون في ذات اللحظة أو البقعة أو المكان , بل وحتى الزمان إستطاعوا أن يأسروه في فترات جامدة , وكأنهم علّبوه , أو تعلموا كيف يحنطونه , ويحولون الوجود إلى مومياءات خانسة في صناديق الحجارة الأبيدة الطباع والمصير.

فالمعضلة القاتلة في حياة العرب أجمعين , هي الجهل المقصود بالتأريخ وكراهيته والإنتقام منه , وحتى التأريخ المعاصر

فلا جديد والتأريخ , عبارة عن إمعان في الكتابة عن السلطان , والقائد والرئيس والملك والإمبراطور والخليفة , ولا غير ذلك يثير الإهتمام.

وهذا السلوك يؤكد أن طبيعة البشر لم تتبدل , وأنهم في كل زمان يمارسون ذات السلوك , ويتفاعلون مع الكراسي بذات الكيفيات الساعية للحصول على الإمتيازات والأموال والقوة , وتأكيد الأنانية وإنفلات نوازع النفوس الأمارة بالسوء والبغضاء , وتمجيد المنكرات , ومحاربة المعروف ,

لأنه لا يساهم في إشباع الرغبات.

تلك حقيقة وجود , يتهاوى في الوهن والخسران , بإرادة أبناء أمة , تتحرك معمّمة بالجهل وتستلطف التحول إلى سجير يبعث دخانا , فيخبو دورهم , وتغيب أمتهم , في متاهات الحائرين , المنومين بأفيون الويلات والتفاعلات ذات السلوك المشين.

سابعا: أيّها التأريخُ عذرا!!

أيّها التأريخُ عُذرا إنّنا
قد جُنِنّا فمَحَقنا أصْلَنا

أرْضنا كنزٌ وفيها مَجْدنا
يَكرهُ الأمْجادَ دوما طبْعُنا

يا نداءاتَ الخطايا ما جرى
نفسُ سوءٍ إستقادتْ بيْننا

تترٌ من نسْل أشْرارٍ بَغَتْ
واسْتباحَتْ روحَ نورٍ حَفّنا

هكذا التأريخُ يُمْحى عُنوَةً
فضَرى النيرانِ دامَتْ عِندَنا

إنّها جاءَتْ لسوءٍ سائدٍ
بجَهولٍ يتعالى فوقنا

فغدى الدينُ وجيعا فادِحا
يُقتَلُ الدينُ , ودينٌ قَتَلُنا

عربٌ ضاعوا ودينٌ إشتكى
وضَلالٌ مِثلُ دينٍ نَهجُنا

حارتِ الأفهامُ في أمْرِ الذي
يذبحُ الدينَ بدينٍ مُفتَنى

جَلبوهمْ مِنْ دياجيرِ انْقضى
أطلقوهمْ سَرطانا ضُدّنا

فالموجود عندنا هو إعادة تكرار الأخطاء والسلبيات وتحويلها إلى قوانين فاعلة في تدمير وجودنا وسحق مصيرنا , وفي هذا يكمن جوهر تداعياتنا الدامية.

ولذلك فنحن نكتب مسيرة حاضرنا بمداد الجهل , فنقضي على المستقبل وندفنه في مقابر الويلات. وفينا صوت يتردد على مدى القرون " لا يُلدغ المؤمن من جحرٍ مرتين"

الذين يكتبون التأريخ يكونون تحت رحمة السلطان أو نظام الحكم , وحتى الشعراء , فلا يمكن لأحدهم أن يهجو أو يصف الحالة كما هي عليه , وإنما كما يريدها السلطان أن توصف.

يبدو أن التأريخ المكتوب بمداد الكراسي ورجالاتها , قد أسهم في تدمير العقل العربي , وأنضبه من مهارات التفاعل مع الحياة

سَلّحوهمْ ثمّ قالوا إنّهمْ
كوحوشٍ إسْتضامَتْ كوْنَنا

دُهِشَ الوحشُ بها مِنْ فِعلهمْ
فوحوشُ الغابِ تأبى الأرْعَنا

يا بلادا من تليدٍ كلّها
حُرمةٌ ضاعتْ وعِزّ إنْفنى

وقطارُ الْيأسِ حَمّالُ الأسى
بدمارٍ وخرابٍ مُجْتنى

أتلفوا كلّ جَميلٍ أنْفسٍ
أحْرقوا رمزا مَنيعا مُعْطِنا

كيفَ للتأريخِ يبقى صامِتا
وفِعالُ الشرّ تُبْكي الأزمُنا

ليتَ ما في أرْضنا دامَ بها
حَفَظَ التربُ عَظيما مُرْكَنا

دونَ باءٍ بشرٌ في غيّهِ
يَجعلُ الأيّامَ أسرا مُزمِنا

لعنَ الله جُموعا أوْغَلتْ
بضلالاتٍ أصابَتْ عِزّنا

كيفَ للدينِ بعَصْرٍ إعْتدى
ودُعاة الدينِ هُمْ أعداؤنا؟!!

*** *** ***

أن مسيرة الحكم العربي , ومنذ إبتدائها , تحوّلت إلى دوامة من العواصف التي تمحق بعضها بعضا , فاللاحق يمحق ما أقامه السابق , وهكذا دواليك , ولازلنا ندور في ذات الفلك السلبي التدميري , لمعاني الوجود الحضاري الرشيد.

أيّها التأريخُ عُذرا إنّنا
قد جُنِنّا فمَحَقنا أصْلَنا

عربٌ ضاعوا ودينٌ
إشتكى
وضَلالٌ مِثْلُ دينٍ نَهجُنا

*والشكر موصول للدكتور جمال التركي لإثارته الموضوع , وأملنا أن تكون الخطوة الأولى للمساهمة النفسية بقراءة التأريخ , وتشخيص التداعيات السلوكية الناجمة عن الإقترابات المتنوعة نحوه.

*** ***

شبكة علوم النفس العربية
نحو لياقة نفسانية أفضل
Arabpsynet